تمام المتون
في شرح رسالة ابن زيدون

لخليل بن أيبك الصفدي

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تمام المتون

في شرح رسالة ابن زيدون

لخليل بن أيبك الصفدي

تحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت ص. ب: ٨٣٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

من الطرائق التي سلكها القدماء في التأليف والتصنيف ، طريقة الشروح والحواشي والتعاليق ؛ يعمد المؤلف إلى نص نفيس سار ذكره ، أو كتاب موجز اشتهر أمره ، فيتناوله بالتفسير والشرح إن كان مبهماً ، أو يبسطه بالإيضاح إن كان موجزاً ، ويزيد فيه بما يتاح له من المعاني ، وما وقع من الخبرات والمشاهدات ؛ ثم يستطرد بما يتداعى إلى ذهنه من فنون الكلام ، مما قرأ وحفظ ، أو سمع وروى ، فيكون النص أو الكتاب بعد ذلك شيئاً آخر حفيلا بالفوائد ، جامعاً لشتيت المسائل .

وبهذا المنهج المفيد ، حفظ كثير من أبواب العلوم والفصول في الآداب ومرويات الشعر وأطراف الفنون ، ونقل إلينا ما أودع في بطون كتب وأسفار ، ربما تكون قد ذهبت بها عوادي الأيام .

ونظرة إلى ما حوته شروح نقائض جرير والفرزدق ، والمفضليات ، والمعلقات ، وما أورده ابن أبي الحديد تعليقاً على كتاب نهج البلاغة وأبو العباس الشريشي على المقامات ، وما اشتمل عليه كتاب خزانة الأدب للبغدادي ، وما استطرد به ابن هشام في شرحه لقصيدة « بانت سعاد » ، وما عقده العلماء من فصول وأبواب حول كتب الفقه والنحو والأصول ، مما يدرس الآن في المعاهد والجامعات . . . كل هذا ومثله ، مما زخرت به الآداب العربية ؛ وأفاد منه الباحثون والدارسون على مر العصور .

ومن هذه الشروح النفيسة ، هذا الكتاب الذي أسماه صاحبه « تمام المتون من شرح رسالة ابن زيدون » ، وهي الرسالة المعروفة بالجدية .

وابن زيدون صاحب مذهب فى الكتابة والإنشاء عرف به ونسب إليه ، فقد كان إلى ما اشتمل عليه من اللفظ المحبّر ، والأسلوب الرشيق المنمق ، والديباجة الصحيحة المصفّاه ، يشتمل على كثير من ذكر الأحداث والإشارات التاريخية والمعارف الأدبية ، ما يجعل ميدان الشرح واسعاً ، ومناسبات الاستطراد والتعليق متنوعة . . .

وإن كانت رسالته المعروفة بالرسالة الهزلية ـ وهى الرساله التى كتبها على لسان ولادة بنت المستكفى ، إحدى الظريفات من نساء بنات خلفاء الغرب الأمويين إلى أحمد بن عبدوس ـ قد امتلأت بذكر الأعلام من رجالات الجاهلية والإسلام ، ما مكّن لشارحها جمال الدين بن نباته أن يورد فى شرحها قدراً وافياً من التراجم الأصيلة ، والروايات التاريخية ، فإن هذه الرسالة التى كتبها إلى أبى الوليد بن جهور مستعطفاً معتذراً قد حوت من بديع الاستعارات ومحاسن الكنايات ، وضروب الأمثال ، والإشارة إلى كبريات الأحداث فى الجاهلية والإسلام ، والاستشهاد بغرر الشعر ومصطفى القصيد ، ما أتاح لشارحها ، أن يورد حولها ما شاء من ذكر تاريخ هذه الأحداث والوقائع وما دار فيها ، وأن يعمد إلى قدر كبير من الأمثال ، يذكر مواردها ومصادرها ، وأن يروى من القصائد النادرة والخطب الجامعة ، والرسالة والمحبّرة ، والقصص والحكايات والأفاكيه والنوادر ، ما نضحت به القرائح فى الجاهلية والاسلام ، وحفلت به بطون الكتب والدواوين ، وما تنوقل فى مجالس الأدب والشعر على مرّ العصور ، ما جعل هذا الشرح حافلا بأكرم الذخائر وأنفس الأعلاق. بالإضافة إلى أنه جمع فيه المتشابه من معانى الشعراء الأقدمين والمحدثين من عصره فى مصر والعراق والشام ، وأضفى عليه من حسن المنحى واطراد التنسيق ما جعله مراد النفس وراحة العقل ومتعة القلب والخاطر .

ومما زاد هذا السفر نفاسة وقبولا تلك الرسالة الفريدة التى ذيّله بهـا ،

للكاتب محيي الدين بن عبد الظاهر ، أحد أشياخ الإنشاء فى القرن السابع ، كتبها إلى الامام ناصر الدين حسن بن شاور المعروف بابن النقيب ، حذا فيها حذو ابن زيدون ، وهى رسالة نادرة انفرد المؤلف بروايتها ، قصد بها الموازنة بين نثر ابن زيدون وبين من قلّده من كتاب الإنشاء .

* * *

ومؤلف هذا الشرح هو صلاح الصفدى ، أحد الكوكبة من الأئمة المصنفين فى الإسلام ؛ بل هو من أسبقهم فى هذا الميدان ، جال فى فنون الأدب والسِّيَر والتاريخ والتراجم ، ما بين مطوّل ومختصر ، ومنه ما أورده نثراً ، ومنه ماصاغه شعراً . وقد ترجم له الكثير من العلماء ، وأفردت لكتبه البحوث والمقالات[1] .

وأورِد من هذه التراجم نص الترجمة التى أوردها له المؤرخ ابن تغرى بردى فى كتابه المنهل الصافى[2] فإنه استوفى أخباره وذكر كتبه ، كما أورد فيها كثيراً من مختار شعره . وفيه نص رسالته لمعاصره جمال الدين بن نباته ، وإجازة ابن نباتة له فى ردّ رسالته ، وهى من النصوص المخطوطة التى لم تنشر بعد ؛ قال بن تغرى بردى :

خليل بن أيبك الألبكى الشيخ الإمام البارع المفنّن صلاح الدين أبو الصفاء الصفدىّ الأصل الدمشقىّ الدار والوفاة ، الشاعر المشهور . مولده سنه ست وتسعين وستمائة ، وحفظ القرآن العزيز فى صغره ، ثم طلب العلم ، وقرأ على علماء عصره إلى أن برع وساد فى الرسائل والنظم والنثر ، وشارك فى الفضائل ، وكتب

---

(١) انظر الأعلام للزركلى ٢ : ٣٦٤ ، إيضاح المكنون ١ : ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢/٥٥١ : ٦٧ ، ٨٣ ، ٤٤١ ، ٦٧٨ ، البدر الطالع ١ : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، البداية والنهاية ١٤ : ٣٠٣ ، تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٣ : ١٦١ الدرر الكامنة ٢ . ٨٧ ، ٨٨ ، شذرات الذهب ٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، طبقات الشافعية ٦ : ٦٤ — ١٠٣ ، كشف الظنون ٣١ ، ٤٨ ، ١٢٨ ، ٣٨٨ ، ٤٨٨ ، ٥٩٣ ، ٦٠٦ ، ٦٦٧ ، ٧٢١ ، ٨٤١ ، ٩٠٤ ، ١٠٧٣ ، ١١٠٨ ، ١١٢٣ ، ١٢٧٤ ، ١٤٨٨ ، ١٥٣٧ ، ١٥٤٨ ، ١٥٨٦ ، ١٩٩٦ ، معجم المطبوعات ١٢١٠ ، معجم المؤلفين ٢ : ١١٤ ، ١١٥ ، مفتاح السعادة ١ ، ٢١٠ ، النجوم الزاهرة ١١ ، ١٩ — ٢١ .

الخط المنسوب، وقرأ الحديث ، و كتب وسمع بالقاهرة من الدبوسى وغيره ، وبدمشق من أبي الحسن عليّ بن البندنيجيّ وغيره ، في النحو واللغة والأدب والإنشاء ، وولِيَ كتابة المال بدمشق ، وكتابة الإنشاء بها وبالديار المصرية . ثم ولي كتابة السرّ بحلب ، وباشر وظائف جليلة ، و كان بينه وبين علماء عصره وأدبائه مكاتبات ومراسلات ، كالحافظ أبي الفتح ابن سيد الناس ، والبارع جمال الدين بن نباته ، والشيخ زين الدين عمر بن الوردى، وأبي عبدالله المقرئ ، وغيرهم ، وجمع وصنف التصانيف المفيدة .

وذكره الحافظ أبو عبدالله الذهبي في معجمه المختص وأثنى عليه ، وكتب من نظمه ونثره ، وقال : كان إماماً عالماً صادقاً ماهراً في صناعة الإنشاء ، قدوة في فن الأدب ، حسن الأخلاق والمحاضرة ، رُحلة الطالبين ، كتب وصنف التصانيف الكثيرة ، وحدّث . سمع أبا المعالي بن عشائر بحلب . وله نظم رائق ، ونثر فائق . انتهى كلام الذهبي .

قلت : ومن مصنفاته كتاب جنان الجناس ، وفض الختام عن التورية والاستخدام ، والمجاراة والمجازاة مجلدان ، ونصرة الثائر على المثل السائر ، وحلوة المحاضرة في جلوة المذاكرة ، وحسن التصريح في مائة مليح ، والكشف والتنبيه على التشبيه مجلدان ، ولذة السمع في وصف الدمع ، وغرة الصبح في اللعب بالرمح ، وجرّ الذيل في أوصاف الخيل ، والروض الباسم والعَرْف الناسم ، مقاطيع ونظم . والثاني والثالث مقاطيع ونظم أيضاً . وشرح لاميّة العجم في أربع مجلدات . ونكْت الهميان في نكت العميان في مجلدين ، والشعور بالعُور ، وكشف الحال في وصف الخال ، وألحان السواجع من البادى والراجع ، في أربع مجلدات ، وطرد السمع عن سرد السمع ، في أربع مجلدات ، والمقترح في المصطلح ، وطراز الألغاز ، وتوشيح التوشيح ، وزهر الخمائل في ذكر الأوائل ، وتحرير التحريف وتصحيح التصحيف ، ونجم الدياجى في نظم الأحاجى ، وحقيقة

الحجاز إلى الحجاز؛ نظم ونثر، صورة رحلته، والفصل المنيف في المولد الشريف، وغوامض الصحاح، ونفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم، وحلى النواهد على ما في الصحاح من الشواهد، في خمس مجلدات، ورسالة عبرة اللبيب بعثرة الكئيب، ورسالة رشف الرحيق في وصف الحريق، ورسالة اختراع الخداع في مخالفة النقل والطباع، والوافي بالوفيات الكبير في اثنتين وستين مجلداً صغاراً، وأعيان العصر وأعوان النصر، ذكر فيه من مات في عصره من الأعيان في اثني عشر مجلداً لطيفاً، وله تصانيف غير ذلك.

ولما كان سنّه نيفاً على ثلاثين سنة أرسل واستجاز الشيخ جمال الدين محمد ابن نُباته فقال: الحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على أنبيائه محمد وآله وصحبه.

المسئول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رُحْلة أهل الأدب، قبلة ذوي التحصين له في التحصيل والدأب، الذي تبيت شوارد المعاني صَرْعَى تَخَوّله لطافة تخيّله، وتُمْسِي الألفاظ العذبة طوع تحوّله في التراكيب وتحيّله، فأمسى وله النسيب الذي يضحك من العباس في رقّته، ويقيم صريع الغواني إلى مقْتِه بعد مقّته، والغزل الذي يشيب له فَوْد الوليد، ويسترقّ الحرّ من كلام عَبِيد، والتشبيه الذي لو علمه ابن المعتز لمانصب الهلال فخّاً لصيد النجوم، ولو تعاطاه حفيد جُريج لقيل له: ألم تسمع «الم غلبت الروم»، والمديح الذي لو بلغ زهيراً لقال: ما أنا من هذه الحدائق، أو اتصل نبؤه بالمتنبي لاشتغل عن ذكر العُذيب وبارق، والرثاء الذي نقص عنده أبو تمام بعد أن رُفع له لواء الشرف والفخر، وقال: هذه عذوبة الزلال لا ماتفجّر من الخنساء على صخر، والترسّل الذي سقَى الفاضل كأس الحتوف، لما شبّه الغمود بالكمائم والسيوف بالأزهار، وأذهله حتى صحّت له قسمة التجنيس في الخيل والخيال بين المراقب المراقد، وأخطات معه في المرابع والمساجد بين الأنواء والأنوار، والكتابة التي تغدو

الطروس بها وكأنها برود محبّرة أوسماء بالنجوم زاهرة ، إن لم ترض أن تكون فى الأرض رياضاً مزهرة .

أدب على الحضْرى يعلو تاجه ... وله ابن بسّام بكى ألوانا
وترسُّلٌ سبحان من قد زاده ... منه وأعطى الفاضلَ النقصانا
وكتابة لعلوّها فى وضْعِها ... ليس ابن مقلة عندها إنسانا
فلكم أخى فضل رأت عيناه فى الـ ... أوراق لابن نباتة بستانا

جمال الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباته؛ جمع الله به شتات أهل الأدب فى دوحة هذه الدولة ، ولمّ به شعث أبنائه الذين لاصون لهم ولاصولة ، وأقام به عماد أبيات الشعر التى لولاه لما عرفت دارميّة من أطلال خولة ؛ بمنه وكرمه ... إجازة كاتب هذه الأحرف ، ماله – سمح الله له فى مدته – من رواية المصنّفات فى الأحاديث النبويّة والتأليفات الأدبية ، على اختلاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها ، بحسب ما تأدّى ذلك إليه ، واتّصل به ؛من قراءة أو سماع أو إجازة أو وصية أو وجادة من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم ، وإجازة ماله – أحسن الله إليه – من مقول نظماً أو نثراً ، تأليفاً أو وضعاً ، إجازة خاصة ، وإثبات ماله من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم ، وإجازة ماالعله يقع له بعد ذلك إجازة ؛ عامّةً على أحد القولين فى المسألة ، فإن الرياض لا ينقطع زهرها ، والبحار لاتنفد دررها ، وإثبات مايحسن إثباته فى هذه الإجازة ، من المقاطيع الرائقة ، والأبيات اللائقة ، وذكر نسبه ومولده ومكانه متفضلا فى ذلك . وكتبه خليل بن أيبك بن عبد الله الألبكى بالقاهرة المحروسة فى مستهلّ شعبان سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فكتب الشيخ جمال الدين مجيباً لسؤاله بما صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد حمد الله الذى إذا توجّه إليه ذو السؤال فاز ،

وإذا استدعى دعا كرمه ذوو الطلب أجاب وأجاز ، والصلاة على سيدنا محمد كعبة القصد التى ليس بينها وبين النجح حجاز ، وعلى آله وصحبه الذين هم حقائق الفضل والفصل ومن بعدهم مجاز. فلو لزم فى كل الأحوال تناسبُ المخاطبة ، وكان جواب السؤال بحسب ما بينهما من شرف المناسبة ، لما رضىَ سجعُ الحمام لمطارحته نوعاً من الأطيار ، ولا قبل فصحاء الأوَل مراجعة الصدى من الديار ، ولا نفع غمزُ حواجب الأحبّة برد القلوب الهائمة فى أودية الأفكار ؛ ولكن تقوّل الأكابر والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها ، وتنفق مما عندها ، وتجرّد الأماثل سيوف النطق ولا تتعدى الأتباع من الطاعة حدّها . ولمّا كنت أيها الراقم برودَ هذا الاستدعاء ببيانه ، والمنشىء روض هذا السؤال بآثار السحب من بنانه ، والسائل الذى بهرت الأفكارَ فضائله ، وسحرت أربابَ العقول عقائله ، وأقام المسئول مقاماً ليس هو من أهله ، فليتق الله سائله . فريد فنّ الأدب الذى لا يبارى ، وبحره الذى لا يُهدِى غائصَ قلمه الدرّ إلا كباراً ، وذا اليد البيضاء فيه الذى طالما آنس من جانب ذهنه الشريف ناراً ، وخليله الذى اطّلع على أسراره الدقيقة ، ورئيسه الذى لو طارح ابن المعتزّ وتمّت ولايته لكان خليل أمير المؤمنين على الحقيقة ، وناظمه الذى يسرى الطائيّان تحت عَلَمِه المنشور ، وكاتبه الذى يتجبّحُ العبدان بالدخول تحت رقه المأثور . طالما شافه منه العلم وجهاً جميلاً ، وقدراً جليلا ، ولاقى من لا يندم على صحبته فيقول : ياليتنى لم أتّخذ فلاناً خليلاً . فهو الفرس الذى يقصر عن أمالى وصفه الشجرى ، ويفخر الدين والعلم بسحّبه ولفظه ، فهذا يقول: غرسى وهذا يقول ثمرى . كم أغنى بمفرد شخصه عن فضلاء جيل ، وكم بدا للسمع والبصر من بنات فكره بُثينة ومن وجهه جميل ، وكمْ تنزّهت الأفكار من لفظه وخطّه بين آسٍ وورد ، لا بين إذخرٍ وجليل ، وكم دام عهده وودّه حتى كاد يبطل قول الأول: «دليل على الايدوم خليل» . تودّ الشهب لو كانت حصباء غدير طرسه ، ويغار الأفق إذا طرّز بُراعَ درجِه بالظلماء أردية شمسه ، ويتحاسد النظم والنثر على ما تُنتج مقدمات منطقه من النتائج ، وينشده

كل منهما إذا حاول القول: خليل الصفا ، هل أنت بالدار عائج ! إن كتب أغضى ابن مقله من الحسد على قذاه ، وحمل ابن البوّاب لجبهته عصا القلم قائلا : ما ظلم مَنْ أشبه أباه ، وإن نحا النَّحو ابتناه عشراً ، ولانت أعطاف الحروف قسراً ، وتشاجرت الأمثلة على لفظه ، فلا غَرْوَ أن ضرب زيد عمراً ، يترجل كلام الفارسىّ بين يديه ، ويطير حفظ ابن عصفور حذراً من البازى المطلّ عليه. وإن شعر هامت الشعراء بذكره فى كل وادٍ ، وحمل ذكرها فى كل نادٍ ، ونُصبت بيوت نظمه على يفاع الشرف كما تنصب بيوت الأجواد ، طالما بلّد لبيداً ، وولّى منه شعر ابن مقبل شريداً ، وقالت الآداب لبحترّى لفظه : ألم نربك فينا وليداً ! وإن نثر فما الدّر اليتيم إلا تحت حجَره ، ولا الزّهر النضير إلا ما ارتضع من أخلاف قطره ، ولا المترسلون إلا من تصرّف فى ولاية البلاغة تحت نهيه وأمره ، وإن تكلم على فنون الأدب روى الظّمآء ، وجلا معانى الألفاظ كالدمى ، وقالت الأعاريض له ولابن أحمد : خليلى هبّا بارك الله فيكما .

هذا وكم أثنى قديم علم الأوائل على فكره الحكيم ، وشهدت رواية الأحاديث النبوية بفضله ، وما أغلى من شهر بفضله الحديث والقديم !

علت به درجاتُ الفضل واتّضحت ... دقائق من معانى لفظه البهجِ
هذا وليل الشباب الجون منسدلٌ ... فكيف حين يضيء الشيب بالسرج
ياحبّذا أعين الأوصاف ساهرة ... بين الدقائق من علياه والدرج

بدأتنى أعزك الله من الوصف بما قلّ عنه مكانى ، واضمحلّ عيانى ، وكاد من الخجل يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى . وحمّلت كاهلى من المنّ مالم يستطع ، وضربت لذكرى فى الآفاق نوبة خليلية لا تنقطع ، وسألتنى — مع ما عندك من المحاسن التى لها طرب من نفسها ، وثمر من غرسها — أن أجيبك وأجيزك ، وأوازن بمثقال كلمى الحديد إبريزك ، وأقابل لسنك المطلق بلسانى المحصور ، وأثبت استدعاءك الجليلىّ على بيت مال نطق المكسور ، فتحيرتُ بين أمرّين أمرّين ، ووقع ذهنى السقيم بين دائين مضرّين ، إن فعلتُ ما أمرت فما أنا من أرباب

هذا القدر العالى ، والصدر الحالى ، ومن أنا من أبناء مصر حتى أتقدم لهذا الملك العزيز ، وكيف أطالب مع إقتار علمى وفهمى بأن أمدح وأجيز ، وأين لمقيّد خطوى هذه الوثبات . وأنّى يماثل قوة هذا الفرس ضَعف هذا النبات : وإن منعتُ فقد اسأت الأدب والمطلوب حسن الأدب منى ، وأهملت الطاعة التى أقرع بعدها برمح القلم سنّى ، وفاتنى شرف الذكر الذى امتلأ به حوض الأفق وقال قطنى . ثم ترجّح عندى أن أجيب السؤال ، وأقابل بالامتثال ، صابراً على تهكم سائلى ، معظِما قدرى كما قيل بتغافلى ، منقاداً إلى جنّة استدعائك من السطور بسلاسلى . وأجزت لك أن تروى عنى ما يجوز لى روايته من مسموع ومأثور ، ومنظوم ومنثور ، وإجازة ومناولة ومطارحة ومراسلة ، ونقل وتصنيف ، وتنضيد وتفويف ، وماض ومتردد ، وآت على رأى بعض الرواة ومتجدد ، وجميع ما تضمنه استدعاؤك ، فأجمع ما يكون من لفظه المتفرّد ، كاتباً لك بذلك خطِّى ، مشترطا عليك الشرط المعتبر ، فليكن قبولك يا عربىّ البيان جوابَ شرطى ، ذاكراً من لُمع خبرى ما أبطأتُ بذكره ، وأرجو أن أبطىء ولا أخطىء .

فأما مولدى فبمصر المحروسة ، سنة ست وثمانين وستمائة ، بمنزلنا بزقاق القناديل . وأما شيوخ الحديث الذين رويت عنهم سماعاً وحضوراً ، فمن أقدمهم الشيخ شهاب الدين أبو الهيجاء غازى بن أبى الفضل بن عبد الوهاب المعروف بابن الرداف ، والشيخ عز الدين أبو نصر عبد العزيز بن أبى الفرج الحصرى البغدادى ، والشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى محمد إسحاق الأبرقوهى . وأما ذوو الإجازات فى مصر وغيرها من الأمصار فكثير . وأما الفضلاء والأدباء الذين رويت عنهم ورأيتهم ، فمنهم القاضى الفاضل محيى الدين أبو محمد عبدالله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان الكاتب المصرى ، والشيخ الإمام بهاء الدين أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبى النحوى ، والأمير الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الصاحب شرف الدين إسماعيل القيمى الآمدى ، اقترح علىّ - ولم أبلغ الحلم - نظماً فى زيادة النيل فقلت :

زادتْ أصابعُ نيلنا وطَمَتْ فأكمدتِ الأعادى
وأتت بكلِّ جميلةٍ ما ذى أصابعُ ذى أيادى

والشيخ العالم الدين قيس بن سلطان الضرير من أهل منية بنى خصيب ، قرأت عليه كثيراً من الكتب الأدبيات ، وكان كثيراً ما يستنشدنى إلى إن أنشدته قولى :

يا غائبين تعلَّلْنا لغيبتهمْ بطيب عيش ولا والله لم يطبِ
ذكرت والكأسُ فى كفِّى لياليكم فالكأس فى راحة والقلب فى تعبِ

فقال : أتعب والله جذعُك القُرَّح .

والشيخ العالم شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن المفسر ، أنشدنى لنفسه :

لا أرى لى فى حياتى راحةً ذهبت لذة عيشى بالكبرْ
بقىَ الموت لمثلى سترةً يا إلهى أنت أوْلى من سترْ

فأنشدته لى :

بقَلْت وجنة المليح وقد ولّى زمان الصبا الذى كنت أملكْ
يا عِذار الحبيب دعنى فإنى لست فى ذا الزمان من خَلِّ بقلك

والشيخ الأديب الفاضل سراج الدين عمر الوراق المصرى ، سمعته ينشدنى لنفسه :

واخجلتى وصحائفى سودٌ غداً وصحائف الأبرار فى إشراق
وتوقُّعى لموبِّخٍ لىَ قائل : أكذا تكون صحائف الورّاق !

والأديب الفاضل نصير الدين الحمامى ، أنشدنى لنفسه :

أحَبُّ من الدنيا إلىّ وماحوت غزال تبدّى لِى بكأس رحيق
وقد شهدت لى سنّة اللهو أنّنِى أحِبُّ من الصهباء كلّ عتيق

فأنشدته لى :

إني إذا آنستُ همّاً طارقاً   عجّلت باللذات قطع طريقه
ودعوت ألفاظ المليح وكأسه   فنعمت بين حديثه وعتيقه

وجماعة يطول ذكرهم، ويعز عليّ ألاّ يحضرَني الآن إلا شعرهم.

وأما مصنفاتي التي هي كالياسمين لا تساوي جمعها، ولولا جبر الخزائن الشريفة السلطانية الملكية لها ما استجزت نصبها ولا رفعها، فهي: كتاب مجمع الفرائد، كتاب القطر النباتي، كتاب سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ومنتخب الهدية من المدايح المؤيدية، والفاصل من إنشاء الفاضل، وزهر المنثور، وسجع المطوّق، وأبزار الأخبار، وشمائل البيت التَّقَوِيّ، لم يكمل إلى الآن، والأرجوزة المسماة فرائد السلوك في مصايد الملوك. أجزت لك أعزك الله روايتها عني، ورواية ما أدوّنه وأجمعه بعد ذلك حسبما اقترحه استدعاؤك ونمّقه، ونسخه وحققه، وتضمنه سؤالك الذي تصدّقت به عليّ، فمنك السؤال ومنك الصدقة. والله تعالى يشكر عهدك الجميل، وكمالاتك الجزلة، وكرمك الجزيل، ويمتّع فنون الفضائل المتجهة إلى ظل قلمك الظليل، ولا يعدم الأحباب والآداب من اسمك وسمتك خير صاحب وخليل. بمنه وكرمه.

قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب أبي يحيى عبدالرحيم بن نباته الفارقي ثم المصري الجذاميّ، عفا الله عنه. انتهى.

* * *

ومن نظم صاحب الترجمة رحمه الله ما أنشدنا ابن الفرات إجازة، أنشدني الشيخ صلاح الدين بن خليل لنفسه إجازة:

أفديه ساجي الجفون حين رَنَا   أصاب مِنّي الحشا بسهمين
أعدمني الرّشدَ في هواه ولا   أفلح شيء يُصاب بالعين

وله:

سألتمُ عن منام عيني   وقد براه جفًا وبينُ
والنوم قد غاب حين غبتمْ   ولم يقع لي عليه عينُ

وله أيضاً :

المقلة السوداء أجفانُها ترشق في وسط فؤادي نبالْ
وتقطع الطرْق على سلْوتي حتى حسبنا في السُّوَيدا رجالْ

وله أيضاً :

إن لم يصدقني تصدّق بالكرى ليزورني فيه الخيال الزائلُ
وانظر إلى فمي لوصلك واغتنمْ أجرِي وقلْ للدمع :قف يا سائلُ

وله أيضاً :

يقول وقد أنكرته قبلة غصبتها في زورة الطّيْفِ
هذا عِذاري وجفوني فقم واحلف على للصحف والسّيْفِ

وله في معذّر :

محيّاهُ له حسنٌ بديع غدا روض الخدود به مُزَهَّرْ
وعارضه رأى تلك الحواشي مُذهّبةً فزمّكها وشعّرْ

وله أيضاً :

أنفقتُ كنز مدائحي في ثغره وجمعت فيه كلّ معنى شاردِ
وطلبت منه جزاء ذلك قُبلةً فأبى وراح تغزُّلي في البارد

وله أيضاً :

كئوس المدام تحبّ الصفا فكن لتصاويرها مبطلا
ودعها سواذج من نَقْشِها فأحسنُ ما ذُهِّبَتْ بالطّلاَ

وله أيضاً :

أقول له ما كان خدُّك هكذا
ولا الصُّدْغ حتى سال في الشّفَقِ الدُّجَى
فمن أين هذا الحسن والظّرف قال لي: تفتّح وَرْدي والعِذارُ تخرّجا

وله أيضاً :

يا من إذا ما أتاه أهلُ المودة أوْلَمْ
أنا محبُّك حقًّا إن كنت في القوم أوْ لَمْ

وله أيضا :

بسهم ألحاظه رماني وذُبْت من هجره وَبيْنِهِ
إن متّ مالي سواه خصمٌ لأنه قاتلي بعينه

قلت : وشعر الشيخ صلاح الدين المذكور كثير ، وفضله غزير ، وهو شاعر مجيد ، على أن جيّده يقلّ عن رديئه ، ولولا أنه كان ضنيناً بنفسه ، راضياً بشعره ، لكان يندر له الرّدئ ، ويكثر منه الجيّد ، فإنه كان غوّاصاً على المعاني ، مبتكراً للنكت البديعة ، عارفاً بفنون الأدب ، لكن رأيت من نظمه بخطّه عندما يعارض بعض مَنْ تقدّمه من مجيدي الشعراء في معنًى من المعاني اللطيفة ، فيأخذ ذلك المعنى أو النكتة ، فينظمها في بيتين ، ويجيد فيهما بحسب الحال ؛ ثم ينظم أيضاً في ذلك المعنى بعينه بيتين آخرين ، ثم بيتين ثم بيتين ، ولا يزال ينظم في ذلك المعنى ، وهو يقول: قلت وقلت .. أنا إلى أن يملّه النظر ، وتسأمه النفس ، ويمجّه السّمع ، فلو ترك ذلك وتحرّى في قريضه ، لكان من الشعراء المجيدين ، لِما يظهر لي من قوّة شعره ، وحسن اختراعه .

توفي الشيخ صلاح الدين المذكور بدمشق في ليلة الأحد عاشر شوال سنة أربع وستين وسبعمائة عفى الله عنه[1] .

* * *

وقد سبق لهذا الكتاب أن نشر في بغداد سنة ١٣٢٧هـ ، ولكنها كانت نشرة خلت من الأصالة والتحقيق ، وشاع فيها الخطأ والتحريف . وحينما عزمت على إخراجه على المنهج العلمي تهيأ لي الحصول على النسخ الآتية :

(١) المنهل الصافي ، مخطوطة دار الكتب برقم ٦٣٠ ـــ تاريخ .

١ — نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ٤٥٣٦ ـ أدب طلعت ، بخط محمد ابن محمود بن محمد بن خليل الشافعي تمت كتابته في « يوم الأحد المبارك الأول من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وتسعمائة » ، كتبت بقلم معتاد تغلب عليها الصحة ، وفيها بعض الضبط وخاصة في الشعر . تقع في ٣٥١ صفحة ، في كل صفحة ٢١ سطر ، في كل سطر عشر كلمات تقريباً ، وقد اتخذت هذه النسخة أصلا في التحقيق .

٢ — نسخة مخطوطة بدار الكتب محفوظة برقم ٢٤٨ ـ أدب ، كتبت سنة ١٠٨٤ ، بخط نسخ ، خالٍ من الضبط ، تقع في ١٧٤ ورقة ، وفي كل صفحة ٢١ سطراً ، وفي كل سطر ١٣ كلمة تقريبا ، وقد رمزت بالحرف د .

٣ — نسخة مخطوطة محفوظة في دار الكتب برقم ١٩ م ـ أدب مخطوطة بقلم معتاد بدون تاريخ ، تقع في ١٥١ ورقة ، والشعر مضبوط ضبطاً تغلب عليه الصحة ، وفي كل صفحة ٢٥ سطراً ، وفي كل سطر ١١ كلمة تقريباً ، وفي نهايتها ترجمة مختصرة للصفدي مؤلف الكتاب وقد رمزت لها بالحرف م كما أني رمزت للنسخة المطبوعة برقم ط .

هذا عدا ما رجعت إليه من كتب التاريخ ومعاجم اللغة ودواوين الشعر وكتب الأدب . وقد صنعت له الفهارس المتنوعة ، ما يتيسر الانتفاع به إن شاء الله ، والله ولي التوفيق ؟ .

١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٨٩

٣ يوليه سنة ١٩٦٩

محمد أبو الفضل إبراهيم